بسم الله الرحمن الرحيم

٩٦ ـ سورة العلق

سورة العلق . وهى مكية بالإجماع . وصدرها أول آية نزلت من القرآن ، كما صحت بذلك الأخبار . وأما أول سورة نزلت كاملة فهى الفاتحة . ويروى فى الأوائل غيرها . ولا منافاة . لأن الأولية حقيقية ونسبية . روى الشيخان[1] وغيرهما عن عائشة قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء . فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد . ويتزوّد لذلك . ثم يرجع إلى خديجة رضى الله عنها فيتزوّد لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء . فجاءه الملك فقال (اقْرَأْ) قال : ما أنا بقارئ . قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال (اقْرَأْ) فقلت : ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال (اقْرَأْ) ، فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٣ ـ باب حدثنا يحيى بن بكير ، حديث رقم ٣ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٥٢ (طبعتنا) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ)

[٢] (خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ)

[٣] (ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ)

[٤] (ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ)

[٥] (عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

« ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ » أى اقرأ ما يوحى إليك من القرآن ملتبساً باسمه تعالى . أى مبتدئاً به لتتحقق مقارنته لجميع أجزاء المقروء . قال أبو السعود : والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية ، والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام ، للإشعار بتبليغه عليه السلام إلى الغاية القاصية من الكمالات البشرية ، بإنزال الوحى المتواتر . ووصف الرب بقوله تعالى (ٱلَّذِى خَلَقَ) لتذكير أول النعماء الفائضة عليه ﷺ منه تعالى . والتنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان على ما هو عليه من الحياة ، وما يتبعها من الكمالات العلمية والعملية ، من مادة لم تشم رائحة الحياة فضلا عن سائر الكمالات ، قادر على تعليم القراءة للحىّ العالم المتكلم ـ أى الذى أنشأ الخلق واستأثر به أو خلق كل شىء .

وقال الإمام : ترى من سياق الرواية التى قدمناها أن المتبادر من معنى الآية الأولى : كن قارئاً باسم الله من قبيل الأمر التكوينىّ . فإن النبىّ ﷺ لم يكن قارئاً ولا كاتباً . ولذلك كرر القول مراراً : ما أنا بقارئ . وبعد ذلك جاء الأمر الإلهىّ بأن يكون قارئاً وإن لم يكن

كاتباً . فإنه سينزل عليه كتاب يقرؤه. وإن كان لا يكتبه . ولذلك وصف الرب بالذى خلق، أى الذى أوجد الكائنات التى لا يحيط بها الوصف، قادر أن يوجد فيك القراءة وإن لم يسبق لك تعلمها . لأنك لم تكن تدرى ما الكتاب . فكأنّ الله يقول : كن قارئاً بقدرتى وبإرادتى . وإنما عبر بالاسم ، لأنه كما سبق فى (سورة سبح) دال على ما تعرف به الذات، وخلق القراءة يلفتك إلى الذات وصفاتها جميعاً. لأن القراءة علم فى نفس حية. فهى تخطر ببالك من الله وجوده وعلمه وقدرته وإرادته . أما إذا حملنا الأمر على التكليف وقلنا : إن المعنى أنك مأمور إذا قرأت أن تقرأ باسم الله ، وهو خلاف المتبادر، فيكون معنى ذلك: إذا قرأت فاقرأ دائما على أن تكون قراءتك عملا تنفذه لله لا لغيره فلو فرض أنه قرأ وجعل قراءته لله لا لأحد سواه ولم يذكر الاسم ، فهو قارئ باسم الله . وإنما طلبت التسمية باللسان لتكون منبهة للضمير فى بداية كل عمل ، إلى أن يرجع إلى الله فى ذلك العمل . ويلاحظ أنه يعمل لاسمه لا لاسم غيره سبحانه . انتهى . وهو جيد « خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ » أى دم جامد . وهى حالة الجنين فى الأيام الأولى لخلقه ، وتخصيص خلق الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات ، لاستقلاله ببدائع الصنع والتدبير وتفخيما لشأنه . إذ هو أشرفها وإليه التنزيل . وهو المأمور بالقراءة ، وإنما قال (علق) دون (علقة) كما فى الآية الأخرى ، لرعاية الفواصل ، ولأن (الإنسان) مراد به الجنس . فهو فى معنى الجمع . فلذا جمع ما خلق منه ليطابقه . وخص العلق دون غيره من التارات ، لأنه أدل على كمال القدر، من المضغة . مع استلزامه لما تقدمه. ومع رعاية الفواصل .

قال الإمام: أى ومن كان قادرا على أن يخلق من الدم الجامد إنساناً ، وهو الحىّ الناطق الذى يسود بعلمه على سائر المخلوقات الأرضية ، ويسخرها لخدمته ؛ يقدر أن يجعل من الانسان الكامل مثل النبىّ ﷺ قارئاً . وإن لم يسبق له تعلم القراءة . وجاء بهذه الآية بعد سابقتها ، ليزيد المعنى تأكيداً . كأنه يقول لمن كرر القول أنه ليس بقارئ : أيقن أنك قد

صرت قارئاً بإذن ربك الذى أوجد الكائنات ، وما القراءة إلا واحدة منها . والذى أنشأ الإنسان خلقاً كاملًا من دم جامد لا شكل فيه ولاصورة . وإنما القراءة صفة عارضة على ذلك الإنسان الكامل. فهى أولى بسهولة الإيجاد، ولما كانت القراءة من الملكات التى لاتكسبها النفس إلا بالتكرار والتعوّد على ما جرت به العادة فى الناس ، ناب تكرار الأمر الإلهىّ عن تكرار المقروء ، فى تصييرها ملكة للنبىّ ﷺ . فلهذا كرر الأمر بقوله « اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ » وجملة (وَرَبُّكَ) الخ استئنافية لبيان أن الله أكرم من كل من يرجى منه الإعطاء . فيسيرٌ عليه أن يفيض عليك هذه النعمة ، نعمة القراءة ، من بحر كرمه. ثم أراد أن يزيده اطمئناناً بهذه الموهبة الجديدة ، فوصف مانحها بأنه « الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ » أى أفهم الناس بواسطة القلم كما أفهمهم بواسطة اللسان . والقلمُ آلة جامدة لا حياة فيها ، ولا من شأنها فى ذاتها الإفهام . فالذى جعل من الجماد الميت الصامت آلة للفهم والبيان ، ألا يجعل منك قارئا مبيّنا وتاليا معلماً وأنت إنسان كامل ؟؟ ثم أراد أن يقطع الشبهة من نفسه، ويبعد عنه استغراب أن يقرأ ولم يكن قارئاً ، فقال « عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » أى إن الذى صدر أمره بأن تكون قارئاً ، وأوجد فيك ملكة القراءة والتلاوة ، وسيبلغك فيها مبلغاً لم يبلغه سواك ، هو الذى علم الإنسان جميع ماهو متمتع به من العلم، وكان فى بدء خلقه لايعلم شيئا، فهل يستغرب من هذا المعلِّم الذى ابتدأ العلم للإنسان ولم يكن سبق له علم بالمرة، أن يعلمك القراءة وعندك كثير من العلوم سواها ونفسك مستعدة بها لقبول غيرها ؟؟ انتهى .

تنبيهات :

الأول : قال الإمام ابن القيّم فى (مفتاح دار السعادة) فى مباحث عجائب الإنسان وما فى خلقه من الحكم: ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين . البيان النطقىّ والبيان الخطىّ وقد اعتد بهما سبحانه فى جملة ما اعتد به من نعمة على العبد . فقال فى أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ *

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فتأمل كيف جمع فى هذه الكلمات مراتب الخلق كلها ، وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه . فذكر أولا عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجى . ثم ذكر ثانياً خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة . والآية فيه عظيمة . ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم . وذكر مادة خلقه ههنا من العلقة . وفى سائر المواضع يذكر ماهو سابق عليها . أما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذى كالفخار ، أو مادة الفرع وهو الماء المهين . وذكر فى هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلقة . فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة . ثم ذكر ثالثاً التعليم بالقلم الذى هو من أعظم نعمه على عباده . إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس ، وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين . ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ، ودرست السنن وتخبطت الأحكام ، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف . وكان معظم الخلل الداخل على الناس فى دينهم ودنياهم ، إنما يعتريهم من النسيان الذى يمحو صور العلم من قلوبهم . فجعل لهم الكتاب وعاء حافظاً للعلم من الضياع ، كالأوعية التى تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان . فنعمة الله عز وجل بتعليم القلم بعد القرآن ، من أجلّ النعم . والتعليم به ، وإن كان مما يخاص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة ، فإن الذى بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه ، وفضل أعطاه الله إياه ، وزيادة فى خلقه وفضله . فهو الذى علمه الكتابة ، وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذى علم بالقلم . فإنه علمه فتعلّم . كما أنه علمه الكلام فتكلم . هذا ، ومن أعطاه الذهن الذى يعى به ، واللسان الذى يترجم به ، والبنان الذى يخطّ به ، ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات ، ومن الذى أنطق لسانه وحرك بنانه ، ومن الذى دعم البنان بالكف ، ودعم الكف بالساعد . فكم لله من آية نحن غافلون عنها فى التعليم بالقلم . فقف وقفة فى حال

الكتابة وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد ، ووضعته على القرطاس وهو جماد ، فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر ، وجوابات المسائل . فمن الذى أجرى فلك المعانى على قلبك ، ورسمها فى ذهنك ، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك ، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشاً عجيباً ، معناه أعجب من صورته ، فتقضى به مآربك وتبلغ به حاجة فى صدرك ، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة ، فيقوم مقامك ، ويترجم عنك . ويتكلم على لسانك ويقوم مقام رسولك ، ويجدى عليك مالا يجدى من ترسله ، سوى من علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم ؟ والتعليمُ بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة : مرتبة الوجود الذهنىّ والوجود اللفظىّ والوجود الرسمىّ . فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطى لهذه المراتب . ودل قوله (خَلَقَ) على أنه يعطى الوجود العينىّ . فدلّت هذه الآيات ، مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها ، على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقاً وتعليما . وذكر خلقين وتعليمين خلقا عاما وخلقا خاصا . وتعليماً خاصاً وتعليما عاما . وذكر من صفاته ههنا اسم (الأكرم) الذى هو فيه كل خير وكل كمال . فله كل كمال وَصْفا ، ومنه كل خير فعلًا . فهو (الأكرم) فى ذاته وأوصافه وأفعاله . وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه ، لا من حاجة دعته إلى ذلك ، وهو الغنىّ الحميد .

الثانى : قال الإمام : لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه ، من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحى بهذه الآيات الباهرات . فإن لم يهتد المسلمون بهذا الهدى ، ولم ينبههم النظر فيه إلى النهوض إلى تمزيق تلك الحجب التى حجبت عن أبصارهم نور العلم ، وكسر تلك الأبواب التى غلقها عليهم رؤساؤهم وحبسوهم بها فى ظلمات من الجهل ، وإن لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين ، ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع ، فلا أرشدهم الله أبداً .

الثالث : قال الرازىّ : فى قوله (بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ) إشارة

إلى الدلالة العقلية الدالة على كمال القدرة والحكمة والعلم والرحمة . وفى قوله (ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ) إشارة إلى الأحكام المكتوبة التى لا سبيل إلى معرفتها إلا بالسمع . فالأول كأنه إشارة إلى معرفة الربوبية . والثانى إلى النبوّة . وقدم الأول على الثانى تنبيهاً على أن معرفة الربوبية غنية عن النبوة ، وأما النبوة فإنها محتاجة إلى معرفة الربوبية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ)

[٧] (أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ)

[٨] (إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ)

« كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ » أى حقاً إن الإنسان ليتجاوز حده ويستكبر على ربه ، أن رأى نفسه استغنت . فـ (كلا) بمعنى (حقاً) لعدم ما يتوجه إليه الردع ظاهراً ، لتأخر نزول هذا عما قبله ـ على ما تقدم فى المأثور ـ أو هو ردع لمن كفر بنعمة الله بطغيانه وإن لم يذكر ، لدلالة الكلام عليه . فإن مفتتح السورة إلى هذا المقطع يدل على عظيم منته تعالى على الإنسان . فإذا قيل (كَلَّآ) يكون ردعاً للإنسان الذى قابل تلك النعم بالكفران والطغيان . أى ما هكذا ينبغى أن يكون الإنسان . ينعم عليه ربه بتسوية خلقه وتعليمه مالم يكن يعلم ، وإنعامه بما لا كفء له ، ثم يكفر بربه الذى فعل به ذلك ويطغى عليه أن رآه استغنى .

قال الكرخىّ ، ومذهب أبى حيان أن (كلا) بمعنى (ألا) الاستفتاحية ، وصوبه ابن هشام بكسر همزة (إن) بعدها كما بعد حرف التنبيه . وفى (الكواشى) : يجوز فى (كلا) أن تكون تنبيهاً ، فيقف على ما قبلها . وردعا ، فيقف عليها .

تنبيه :

دلت الآية على قاعدة عظيمة فى باب التموّل المحمود ، قررها الحكماء المصلحون . وهو أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير . قالوا : لأن إفراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة فى الإنسان ، كما نطقت به الآية الكريمة .

قال بعض الحكماء : التحول لأجل الحاجات وبقدرها ، محمود بثلاثة شروط . وإلا كان حرص التمول من أقبح الخصال .

الشرط الأول : أن يكون إحراز المال بوجه مشروع حلال. أى إحرازه من بذل الطبيعة أو بالمعارضة أو فى مقابل عمل .

والشرط الثانى : أن لا يكون فى التمول تضييق على حاجات الغير ، كاحتكار الضروريات ، أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء ، أو التغلب على المباحات . مثل امتلاك الأراضى التى جعلها خالقها ممرحا لكافة مخلوقاته . وهى أمهم ترضعهم لبن جهازاتها وتغذيهم بثمراتها وتؤويهم فى حضن أجزائها .

الشرط الثالث لجواز التمول : هو أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير ، وإلا فسدت الأخلاق . ولذلك حرمت الشرائع السماوية كلها ، والحكمة السياسية والأخلاقية والعمرانية أكل الربا . وذلك لقصد حفظ التساوى والتقارب بين الناس فى القوة المالية . لأن الربا كسب بدون مقابل مادىّ ، ففيه معنى الغصب . وبدون عمل ، ففيه الألفة على البطالة المفسدة للأخلاق . وبدون تعرض لخسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والأملاك . دع أن بالربا تربو الثروات، فيختل التساوى بين الناس ، كما تقدم بيانه فى أواخر سورة البقرة .

وقوله تعالى « إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ » أى المرجع فى الآخرة. قال أبو السعود: تهديد للطاغى وتحذير له من عاقبة الطغيان. والالتفات للتشديد فى التهديد، و (الرجعى) مصدر بمعنى الرجوع. وتقديم الظرف لقصره عليه. أى إن إلى مالك أمرك رجوع الكل بالموت والبعث، لا إلى غيره، استقلالاً ولا اشتراكاً. فسترى حينئذٍ عاقبة طغيانك . وقد جوز كون الخطاب للرسول صلوات الله عليه ، والتهديد والتحذير بحاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ)

[١٠] (عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ)

[١١] (أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ)

[١٢] (أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ)

[١٣] (أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ)

[١٤] (أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ)

« أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ » أى يمنعه عن الصلاة . وعبر بالنهى ، إشارة إلى عدم اقتداره على غير ذلك . قال ابن عطية : لم يختلف المفسرون فى أن الناهى أبو جهل والعبد المصلى النبىّ ﷺ . كما روى فى الصحيحين . ولفظ البخارىّ عن ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه . فبلغ النبىّ ﷺ فقال : لو فعله لأخذته الملائكة . وفى الآية تقبيح وتشنيع لحال ذاك الكافر ، وتعجيب منها وإيذان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يجب أن يراها كل من يتأتى منه الرؤية ويقضى منها العجب . ولفظ (العبد) وتنكيره ، لتفخيمه عليه السلام ، واستعظام النهى وتأكيد التعجب منه . وقيل : إنه من إرخاء العنان فى الكلام المنصف ، إذ قال (ينهى) ولم يقل (يؤذى) و (عبداً) دون (نبيّا) والرؤية ههنا بصرية ، وفيما بعدها قلبية . معناه : أخبرنى . فإن الرؤية لما كانت سببا للإخبار عن المرئىّ ، أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها . قاله أبو السعود .

---

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩٦ ـ سورة اقرأ باسم ربك الذى خلق ، حديث رقم ٢٠٧٢ .

وقال الإمام : كلمة (أرأيت) صارت تستعمل فى معنى (أخبرنى) على أنها لايقصد بها فى مثل هـذه الآية الاستخبار الحقيقىّ ، ولـكن يقصـد بها إنـكار المستخبر عنها وتقبيحها . فـكأنه يقول : ما أسخف عقل هذا الذى يطغى به الـكبر فينهى عبداً من عبيد الله عن صلاته ، خصوصاً وهو فى حالة أدائها . وقوله « أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ *أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ » أى أرأيت إن كان ذلك الناهى على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله ، أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان ، كما يعتقد ؟ وجواب الشرط محذوف دل عليه ما بعده . أى ألم يعلم بأن الله يرى . وعليه ، فالضمائر كلها (لمذى ينهى) وجوز عود الضمير المستتر فى (كان) للعبد المصلى . وكذا فى (أمر) أى أرأيت الذى ينهى عبداً يصلى ؟ والمنهىّ على الهدى آمر بالتقوى . والنهى مكذب متول ، فما أعجب من هذا ! وذهب الإمام رحمه الله ، فى تأويل الآية إلى معنى آخر . وعبارته : أماقوله (أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ) فمعناه أخبرنى عن حاله إن كان ذلك الطاغى على الهدى وعلى صراط الحق ، أو أمر بالتقوى مكان نهيه عن الصلاة ، أفما كان ذلك خيراً له وأفضل ؟ وقوله أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ » أى نبئنى عن حاله إن كذب بما جاء به النبيون . وتولى أى أعرض عن العمل الطيب ، أفلا يخشى أن تحل به قارعة ويصيبه من عذاب الله مالا قِبَلَ له باحتمال ؟ فجواب كل من الشرطين محذوف كما رأيت فى تفسير المعنى . وهو من الإيجاز المحمود ، بعد ما دل على المحذوف بقوله « أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ » أى أجهل أن الله يطلع على أمره ؟ فإن كان تقيًّا على الهدى أحسن جزاءه ، وإن كذب وتولى لم يفلت من عقوبته . ثم إن مايطيل به المفسرون فى المفعول الثانى لفعل (أرأيت) الأولى ومفعوليها فى الثانية والثالثة ، فهو مما لامعنى له ؛ لأن القرآن قدوة فى التعبير ، وقد استعملها بمفعول واحـد وبلا مفعول أصلًا بمعنى (أخبرنى) . والجملة المستخبر عن مضمونها ، تسد مسد المفاعيل . انتهى كلامه رحمه الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ)

[١٦] (نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)

[١٧] (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ)

[١٨] (سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ)

[١٩] (كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب)

« كَلَّا » ردع عن النهى عن الصلاة « لَئِن لَّمْ يَنتَهِ » أى عن هذا الطغيان ، وعن النهى عن الصلاة ، وعن التكذيب والتولى « لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ » أى لنأخذن بناصيته ، ولنسحبنّه بها إلى النار . والسفع : القبض على الشىء وجذبه بشدة . والأخذ بالناصية هنا ، مَثَلٌ فى القهر والإذلال والتعذيب والنكال . وقوله تعالى « نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ » بدل من (الناصية) ولم يقتصر على إحدى الجملتين ، لأن ذكر الأولى للتنصيص على أنها ناصية الناهى والثانية لتوصف بما يدل على علة السفع وشموله لكل من وجد فيه ذلك . ووصفها بالكذب والخطأ ، وهما لصاحبها ، على الإسناد المجازىّ ، للمبالغة لأنها تدل على وصفه بالكذب بطريق الأوْلى ، ولأنه لشدة كذبه كان كل جزء من أجزائه يكذب . وكذا حال الخطأ ، وهو كقوله[1] (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ) و (وجهها يصف الجمال) ـ والتجوز بإسناد ما للكل إلى الجزء ، كما يسند إلى الجزئىّ فى قولهم (بنو فلان قتلوا قتيلًا) والقاتل أحدهم .

لطيفة :

قال فى (البحر) : كتبت نون (لَنَسْفَعًۢا) بالألف باعتبار الوقف عليها بإبدالها ألفاً . وقال السمين : الوقف على هذه النون بالألف تشبيها لها بالتنوين . وتكتب هنا ألفاً اتباعاً للوقف

(١) [١٦ / النحل / ٦٢] .

لأن قاعدة الرسم مبنية على حال الوقف والابتداء «فَلْيَدْعُ نَادِيَهُو» أى أهل مجلسه، ليمنع المصلين ويؤذى أهل الحق الصادقين ، اتكالًا على قوتهم وغفلة عن قهر الحق وسخطه . والجملة إما بتقدير مضاف، أو على الإسناد المجازىّ من إطلاق اسم المحل على من حلّ فيه. والنادى المجلس الذى ينتدى فيه القوم، أى يجتمعون « سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ » أى زبانية العذاب من جنوده تعالى فيهلكونه فى الدنيا ، أو يردونه فى النار فى الآخرة وهو صاغر ، ولم يرسم (سندع) بالواو فى المصاحف باتباع الرسم للفظ ، أو لمشاكلة قوله (فليدع) وقيل إنه مجزوم فى جواب الأمر وفيه نظر « كَلَّا » ردع للناهى بعد ردع ، وزجر إثر زجر « لَا تُطِعْهُ » أى لا تطع ذاك الطاغى إذا نهاك عن عبادة ربك . قال الزمخشرىّ : أى اثبت على ما أنت عليه من عصيانه كقوله[1] (فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ) « وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب» أى صل لربك وتقرب منه بالعبادة وتحبب إليه بالطاعة . وفى صحيح مسلم[2] عن أبى هريرة مرفوعا: أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد . فأكثروا من الدعاء .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أن الآيات نزلت فى أبى جهل ، على ما صح فى الأخبار ، قال الإمام: ولا مانع من أن يكون فى الآيات إشارة إليه، ولكنها عامة فى كل وقت وزمن كما ترى . والخطاب فيها موجه إلى من يخاطب لا إلى شخص النبىّ ﷺ . والله أعلم .

الثانى: قال الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) : إنما شدد الأمر ـ أمر الوعيد ـ فى حق أبى جهل ولم يقع مثل ذلك لعقبة بن أبى معيط ، حيث طرح سلى الجزور على ظهره ﷺ وهو يصلى ـ لأنهما وإن اشتركا فى مطلق الأذية حال صلاته ، لكن زاد أبو جهل بالتهديد وبدعوة أهل طاعته ، وبوطء العنق الشريف . وفى ذلك من المبالغة ما اقتضى تعجيل

(١) [٦٨ / القلم / ٨] .

(٢) أخرجه فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢١٥ (طبعتنا) .

العقوبة له ، لو فعل ذلك . وقد عوقب عقبة بدعائه ﷺ وعلى من شاركه فى فعله ، فقتلوا يوم بدر ، كأبى جهل .

الثالث : قال الإمام : ذكر الصلاة فى الصورة لا يدل على أن بقيتها نزل بعد فرض الصلاة . فقد كان للنبىّ ﷺ وأصحابه صلاة قبل أن تفرض الصلوات الخمس المعروفة .

الرابع : قال فى (اللباب) : سجدة هذه السورة من عزائم سجود التلاوة عند الشافعىّ . فيسنّ للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءتها . يدل عليه ما روى عن أبى هريرة[1] قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ فى (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) و (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) : أخرجه مسلم فى صحيحه .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٥ ـ كتاب الإقامة ، ٧١ ـ باب عدد سجود القرآن ، حديث رقم ١٠٥٨ (طبعتنا) .